2

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi
20 OCAK 1989

ATATÜRK ÜNİVERSİTESİ

İSLÂMÎ İLİMLER FAKÜLTESİ DERGİSİ

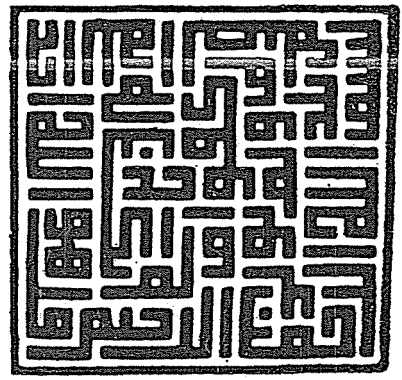

2. Sayı

Sevinç Matbaası, Ankara - 1977

حياة الجاحظ مع اسياده من الاتراك

بقلم الدكتور زكريا كتابجي
استاذ التاريخ الاسلامي
في كلية العلوم الاسلامية
جامعة آتا ترك . ارضروم

التمهيد

ان الذين درسوا الجاحظ اى حياته منذ نشأته الى ان مات وكيانه الذى فاق به جميع معاصريه ، وادبه الذى امتاز به بين الادباء في عصره ، وكتبه التي تصور حياة المجتمع من جميع النواحي في زمنه وآرائه العقيمة التي يدل على سعة صدره ، وافكاره العالية التي تصبو لنا حلول المشاكل في عصره يشهدون بان الاتراك لعبوا دورا هاما في ايامه واثروا تأثيرا شديدا في حياته . ونحن اذ نعالج هذا الموضوع البكر وسحاول كشف القناع عن وجه الحقائق التاريخية ونضيعها امام القراء المعنيين بها .

ولقد عنى العلماء قديما وحديثا في الشرق والعرب بالجاحظ الذى خلف لنا دائرة المعارف الاسلامية تمتد الى كل حقل من حقول المجتمع ، اعنى في التاريخ والسياسة والادب حافلا باثاره وافكاره ، وآرائه . وايضا هم بحثوا بحثا عميقا عن كيانه الادبي ومزاياه البلاغية وتركوا لنا مجلدات مخلدات . ولا نبالغ اذ قلنا ان لم يبق لغيرهم كلام على الجاحظ الا في هذا الموضوع اى حياة الجاحظ مع اسياده من الاتراك الذى لظرفه اليوم .

تاريخ حياة الجاحظ

ويحسن بنا ان نقول كلمة تمهيدية قبل ما نبدأ بالتعرض لهذا الموضوع الهام :
ان هؤلاء العلماء من المؤرخين والادباء كادوا يتفقون على التاريخ التي مات فيه الجاحظ برغم اختلافهم في مولده ونشأته . ونحن نذكر هنا اهم الروايات التي على تاريخ ولادته باحسب الظن الغالب ووفاته . وردت في معجم الادباء . (١)

---

(١) ياقوت الرومي ، معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٤٥٥ راجع

" ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ولد في اول سنة (١٥٠هـ ومات ٢٥٥هـ)
وقد جاوز التمين ،، وفي معجم المطبوعات العربية والمعربة (٢) .

" الجاحظ رئيس الفرقة المعروف بالجاحظية من المعتزلة ولد حوالى سنة ١٦٠هـ بالبصرة ونشأ بها ... ومات فيها مفلوجا سنة ٢٥٥ هـ،، وفي القاموس : (٣)

" ابو عثمان الشهير بالجاحظ كبير ائمة الادب مولده ووفاته بالبصرة في سنة (١٦٣ هـ — ٢٥٥هـ) وفي وفيات الاعيان (٤) " وكانت وفات الجاحظ في شهر المحرم سنة ٢٥٥ هـ . وقد نيف على تعين سنة ،، وفي هدية العارفين (٥) " ابو عثمان البصري الامام اللغوي النحوي المعروف بالجاحظ ولد سنة (١٥٠ هـ) وتوفي سنة ٢٥٥ هـ له من التصانيف .

ذكرنا ما ورد في اهم المصادر التي تعرضت لتاريخ ولادة الجاحظ ووفاته . ومن الصعب جدا ان نجد طريقة تؤلف بين تلك الروايات المختلفة كما نشاهد مثل ذلك في كثير من اعلام الاسلام الذين فتحوا دورا جديدا في حقول العلم واصبحت كتبهم من اصح المصادر المتداولة بين الناس على مر العصور . فاننا لا نعرف تاريخ ولادتهم بالضبط.

والسبب الحقيقي لذلك اولا هو الاسلام الذي لا يهتم بالشخص بل انما يدعوه الانسان الى الحقائق العليا التي سعد بها البشر في الدنيا والاخرة . فمثلا : هاهو نبينا محمد (صلعم) : يختلف الباحثون الى يومنا هذا : في اليوم التي ولد فيها والاسبوع التي وضع فيها والشهر الذي جاء بها ، والعام الذي اشرف فيه على آلار ص بشيرا ونذيرا كافة للناس ورحمة للعالمين

وثانيا وان كثيرا من اعلام الاسلام من العلماء والمؤرخين والادباء كانوا مجهولين في طفولتهم من ناحية الحسب والنسب . وكثير منهم نشأوا بين الموالي والمماليك . ومنهم الضعفاء والفقراء والمساكين . انما جلبوا انظار الناس بعد ما اشتهروا وتبحروا في علم من العلوم وتجاوز صيتهم الى الافاق . وفضلا عن ذلك فان التواضع منعهم ان يكتبوا شيئا عن قصص حياتهم .

---

(٢) يوسف اليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة ج :١ ص :٦٦٦ طبعته مصر ١٩٢٨ .
(٣) خير الدين الزركلي بالاعلام : قاموس تراجم الرجال ج :٥ ص :٢٣٩ طبعته ١٩٥٩
(٤) ابن خلكان، وفيات الاعيان ج :٣ ص :١٤٤ طبعته قاهرة ١٩٤٧
(٥) اسماعيل پاشا البغدادي ، حدية العارفين ج : ١ ص :٨٠٢ طبعته استانبول ١٩٥١

ولذلك لم يتركوا لنا روايةً كافية تضيء مشاكلنا . فلا نعرف الا ببعض الخطوط التي ارتسمت على صفحات حياتهم بعناية الاختصار متعلقة ببعض الحوادث التي تمكنت في اذهان الناس . ولا نخطأ اذا ادخلنا الحظ بينهم . لانه نشأ من ابوين فقيرين . فقير في الجاه والمنصب " وكان جده اسوده يقال فزارة وكان جمالا لعمرو بن قلع الكناني ،،(٦) ولا نعرف شيئا كافيا عن اسرته . انما نعرفها ببعض من رأ الجاحظ في طفولته ويتحدث " انه يبيع الخبز والسمك بسپحان ،، (٧) .

وعلى ما بدا لنا بعد التحقيق يدور اختلاف المؤلفين في تاريخ ولادت الجاحظ ووفاته حول روايتين مهمتين عن الجاحظ نفسه . فقد يروي ياقوت الرومي بصدد ولادة الجاحظ انه قال (٨) " انا اسن من ابي نواس ولدت في اول سنة (١٥٠هـ) وولد في اخرها ،، ورواية اخرى تنبيء عن اواخر عمره . انه وقد اصابه الفالج كان يقول(٩) " انا من جانب الايسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما علمت به ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لالمت وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها واشدها على سنة وتسعون سنة وكان ينشد .

" اترجو ان تكون وانت شيخ ... كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس شوب ... دريس كالجديد من الثياب ،،

وهاتان الروايتان اللتان جائتا عن الجاحظ فيما يتعلق بولادته واواخر عمره هما مصدر الاختلاف عند المؤلفين . ونخلص الى القول ، اتفق العلماء على ان الجاحظ مات في سنة ٢٥٥هـ في البصرة وانه عاش نحو ٩٦هـ عاما كما ذكرناه آنفا . فيكون تاريخ ولادته حوالي سنة ١٥٩ هـ .

---

(٦) ياقوت الرومي ، معجم الادباء ج :٦ ص :٦٥ طبعته مصر
(٧) " " نفس المصدر ج :٦ ص :٦٥ طبعته مصر
(٨) " " نفس المصدر ج :٦ ص : ٥٧ طبعته مصر
(٩) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج :٣ ص : ١٤٢ طبعته مصر .

تعليم الجاحظ :

نعم ولد ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ في البصرة، واخذ النحو عن الاخفش ، وكان تلميذ ابى اسحاق المعروف بالنظام المتكلم المشهور المعتزلي . وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد . (١٠) واولع بالقراءة حتى "انه لم يقع بيده كتابا الا استوفى قراءته كائنا ماكان ، وكان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها النظر" (١١) تثقف بثقافة العربية واتسعت له الثقافة اليونانية وحذق بثقافة الفارسية وامعن نظره في الثقافة التركية ولم يهملها .

واخذ صيت الجاحظ يتوسع يوما فيوما بكتبه ورسائله . ويحدث عنه في قصور الخلفاء والامراء . وتسربت شهرته الى المأمون . فانه بعد ما قرأ كتابه "الامامة" (١٢) استقدمه الى قصره وطلب منه ان يكتب رسالة في العباسية

ولى المأمون الجاحظ ديوان الرسائل . غير انه لم يمكث في ذلك المنصب سوى ثلاثة ايام ثم انه استعفى فاعفى . وكان سهل بن هارون يقول "ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان افل نجم الكتاب" (١٣) .

الاتراك في عاصمة الخلافة :

ثم جاء المعتصم . وكانت امه تركية . وبدأ بالمعتصم دورا جديدا في الدولة العباسية وفي الممالك الاسلامية . وبعدم ثقته بالعرب والفرس استقدم قوما جديدا الى عاصمة دولته وقصره من المناطق الداخلية من ما وراء النهر . واستعان بهم في امور الدولة في الجيش اولا وفي الحكومة ثانيا . وهؤلاء كانوا اتراكا من خوّل المعتصم .

وما كان الاتراك قبل المعتصم الا فئة قليلة في الجند لا شأن لهم في امور الدولة . (١٤) ولم يمض مدة بعد ما جلبهم المعتصم حتى صاروا مسموع الكلام في الدولة وجاوز صيتهم الى الآفاق وقويت شوكتهم وكثرت نفوذهم الى حدان قال الشاعر : (١٥)

اصبح الترك ملكي الامر والعما لم ما بين سامع ومطيع"

---

(١٠) حنا الفاخوري ، الجاحظ ص : طبعته بيروت .
(١١) ياقوت الرومي ، معجم الادباء ج :٦ ص : ٥٧ طبعته مصر .
(١٢)
(١٣) ياقوت الرومي ، معجم الادباء ج : ٦ ص : ٥٨ طبعته مصر .
(١٤) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ج :٤ ص :١٧٨ طبعته دار الهلال بمصر
(١٥) احمد امين ، ظهر الاسلام ج : ١ ص: ٢٢ طبعته مصر ١٩٦٢

الاتراك والجاحظ :

وشاهد الجاحظ مجيء الاتراك الى بغداد على ظهور خيولهم بطلب المعتصم مع حسن هنداميهم وجمال منظرهم ولاسيما الذين كانوا من ابناء العلوج بزيهم الخاص . وشاهد ايضا سطوة الترك وحلولهم محل العرب والفرس وانتصارا تهم على بابك الخرمي وعلى الروم في فتح عمورية في الخارج واخمادهم للفتن والقلاقل التي اثارها العرب في الداخل في المدينة وفي مكة وفي سائر بلاد الدولة العباسية .

واثر هذا كله على الجاحظ حتى اسبغ على الترك قلمه السيال باسلوب جاحظي . وكتب رسالته المشهورة الفريدة في نوعه في فضائل الاتراك . وبين هنا مناقب الاتراك على ما بلغ اليه الآثار وهو يقول في ذلك (١٦) " الا انا على كل حال سنذكر جملا من احاديث رويناها وعيناها وامور رأيناها وشاهدناها ، وقصص تلقفناها من افواه الرجال وسمعناها " .

والحق ان الجاحظ كتب رسالته ايام المعتصم . واراد ان يقدم اليه كما قدم كثير من كتبه الى اكابر الدولة من الوزراء والامراء حتى يتقرب اليهم ويلازم مجلسهم . ولكن لم تصل الرسالة اليه لاسباب يطول شرحها وهو يقول في ذلك " فلذلك لم اعرض للاخبار عنها . واحببت ان يكون كتابا قصدا ومذهبا عدلا ولا يكون كتاب اسراف في مديح قوم واغراق في هجاء آخرين . فان الكتاب اذا كان شأنه الكذب وخالطه التزيد وبني اساسه على التكلف وخرج كلامه مخرج الاستكراه والتعليق واتصل الجاحظ بالمعتصم وصحبه . (١٧)

---

(١٦) الجاحظ ، فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) .

(١٧) الجاحظ ، (كتاب طراز المجالس) ، صناعة القواد ص ٢٦٠ طبعة مصر ١٢٨٤

ومضت ايام المعتصم وجاءت دولة الواثق . وقد ازدهر اقبال الاتراك وكثر عددهم وازداد نفوذهم ولما كانت دولة المتوكل بلغت سطوة الترك الى اوج العالى فى الجيش والحكومة . وكانت ام المتوكل ايضا تركية والاتراك غلبوا فى عهده واخذوا زمام الدولة بايديهم وساعدتهم الجوادث فى اعلاء شأنهم ورفع سلطانهم . وكثيرمنهم تولوا مناصب الدولة وكانت معظم الامور بايدى الاتراك . رممن اشتهر منهم ايتاخ ، ووصيف . وبغا وغيرهم من الاتراك الذين صاروا نخبة من قواد الخليفة فى الجيش وفى ذلك يقول الشاعر ولعله فى المستعين (١٨)

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغاء

صلة الجاحظ برجال الاتراك فى عهد العباسيين

ابو يعقوب الحزيمى الشاعر التركى الجليل والجاحظ

والان سحاول ان نلقى ضوءا على علاقات الجاحظ مع كبار الاتراك فاول منهم ابو يعقوب الحزيمى .

ولا يخفى علينا ان الحزيمى كان من الاتراك الاولين الذين لمعوا سماء الادب والشعر فى عاصمة الخلافة وكان اصله من اتراك ماوراء النهر (اى التركستان السفلى) تعلم العلم والادب حتى صار شاعرا لبيقا واديبا فصيحا يقول ابن المعتز "كان الحزيمى شاعرا مفلقا مطبوعا مقتدرا على الشعر وكان يمدح الخلفاء والوزراء والاشراف فيعطى له الكثير وكان من نسل الاتراك (١٩) ،، فلما قدم الجاحظ الى بغداد اتصل به اتصالا قويا وصار من احب اصدقائه وحسبك قول

---

(١٨) الدكتور ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ج : ٣ ص: ٩ طبعة مصر ١٩٥٥

(١٩) ابن المعتز ، كتاب طبقات الشعراء ، ص : ١٣٩ .

الاستاذ علي جواد الطاهر حيث يقول " اما علاقته — اي الحزيمي — الا دبية فلا بد من انها واسعة وكانت علاقة الجاحظ به علاقة اعجاب "(٢٠) ولذلك لا نتعجبا اذا دور الجاحظ ابياتا كثيرة من شعره في المواضع المختلفة من مؤلفاته (٢١)

ابراهيم بن العباس الصولي من كبار رجال الدولة والجاحظ

فلما نزل الجاحظ ببغداد حتى اخذ صيته ينتشر يوما فيوما بكتبه ورسائله وتحدث عنه الناس في قصور الخلفاء والامراء وبلغ خبره الى المأمون ، فانه لما قرأ كتاب الجاحظ الامامة استقدمه الى قصره وطلب منه ان يكتب رسالة في العباسية . ولعل الجاحظ قد اتصل بعد ما لازم بلاط الخليفة بابراهيم بن العباس الصولي التركي (المتوفي سنة ٢٤٣هـ) من اكبر رجال الدولة في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل من خلفاء العباسيين .

وقد اسند الى ابراهيم ديوان الرسائل الذي هو محور السياسة العامة للدولة وكان لا يتعد به الا لذوي الشرف والنباهة وكان لا يليه الا الحذاق في مختلف العلوم والآداب واصحاب السياسة والتدبير والكياسة . وقد كان ابراهيم بن العباس الصولي مقدما فيه حتى اوائل عهد المأمون . فلما قدم الجاحظ اليه قربه حتى صار من اعز اصدقائه وكان الجاحظ يخلفه في الديوان اذا تعيب في شأن من شئونه الخاصة والعامة حتى لقب بخليفة ابراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل . (٢٢)

نعم : اخرج الجاحظ من ديوان الرسائل ولكنه اتصل اتصالا تاما بابراهيم بن العباس رئيس ديوان الرسائل ، وصار ابراهيم من الشخصيات المشهورة في حياة الجاحظ الذي حظر برعايته ودرايته ومعاملته الودية .

---

(٢٠) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد : ٤١ ، ص : ٤٥٨ .

(٢١) الجاحظ ، البيان والتبيين ج : (ص:٢٤٢ ، الحيوان ج :١ص:٢٢٦—٢٢٤

(٢٢) شارل بلا ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص :٣٨٢ .

وكان من ديدن العلماء اذا الفوكتابا ان يقدموه الى من يقدر حقهم من كبار رجال الدولة (كما اعطر للمؤلفين حق الطبع في زماننا) وقد اتبع الجاحظ هذه السنة القديمة فقدم كتبه الى من يقدر حقه من الوزراء والامراء ومن جملتهم ابراهيم بن العباس الصولى التركى . فانه وضع " كتاب الزرع والنخل و الزيتون والاعناب ،، ورفعه الى ابراهيم بن العباس الصولى من اسياده من الاتراك فاجازعليه بخمسة آلاف دينار . (٢٣) فمن اجل ذلك كان الجاحظ يعيش في ترف من الحياة في البصرة وبغداد وسامراء . حتى ان بعض الناس كانوا يغبطون حاله .

وتشير روايات الجاحظ الى ان بعضاً من حقدوا على ابراهيم وعابوا على الجاحظ تقديم رسالته اليه ومن جملتهم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ولعل الجاحظ كتب رسالته الطويلة " في الجد والهزل ،، حتى قال في هذه الرسالة " وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الاخوان .. ومتى صار تقديم النخلة على وتفضيل السنبلة نحلة فجئتنا انت بنوع من العجب ابطل كل عجب . ٤/٢٤٥

الفتح ابن خاقان وزير المتوكل من اسياد الجاحظ

ومن الاتراك الذين برزوا في الادارة الفتح خاقان التركى . وكان من وزراء الدولة اتخذه المتوكل اخاله وقدمه على اهله . وكان خاصابه حظيا عنده . وكان المتوكل لا يصبرعن الفتح قدر ساعة (٢٥) . واتصل الجاحظ اولا بالفتح بن خاقان التركى . ومع ان المصادر التي بايدينا لاتصرح باى وسيلة اتصل الجاحظ بالفتح . يمكن لنا ان نقول كلمة في اتصاله بالفتح بن خاقان بعد ما اطلعنا على حياة هذين العميدين . احدهما عماد الدولة والاخر عماد الادب العربى في عصره .

---

(٢٣) — الجاحظ ، رسالة في الجد والهزل (رسائل الجاحظ) ج : ١ ص:٢٣١ . الحوى ، معجم الادباء ، ج : ٦ ، ص : ٧٥ .

(٢٤) — الجاحظ ، نفس المصدر ج : ١ ، ص : ٢٤١ ، ٢٣١ ، ٢٥٢ .

(٢٥) — فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن احمد ج : ٢ ، ص : ٢٤٦ طبعة مصر ١٩٥١

ولا شك لدينا ان الفتح بن خاقان كان اكبر رجل في دار الخليفة ومن عظماء الدولة واصحاب المكانة وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل وكان مقصود الجانب من اكابر العلماء وفحول الادباء . ومن ابرز ما اتسم به وميزه عن غيره من الوزراء وكبار الدولة غرامه بالكتاب غراما شديدا . ويقول ابو هفان (٢٦) ثلاثة لم ار قط ولا سمعت باكثر محبة للكتب والعلوم منهم . الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسحق القاضي ،، " وكان له خزانة حكمة لم ير الناس اعظم منها كثرة وحسنا جمعها له علي بن يحي المنجم من كتبه ومما استكتبه الفتح لنفسه . (٢٧)

فلا يبعد ان رجلا مثل الفتح بن خاقان في محبته لكتب اطلع على مؤلفات الجاحظ الذي انتشرصيته في الآفاق واخذ يتحدث عنه في مجالس الظرفاء وحلقة الادباء وقصور الخلفاء ودار الامراء هذه ناحية ومن ناحية اخرى وكان دار الفتح مهبط العلماء ومنزل البلغاء وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة وادباء الكوفة . وممن كان في جملته الفضل بن سلمة اللغوي المعروف . وكان الفتح يتبارى في تفسير الآيات مع المبرد وامثاله . وللبحتري فيه مدائح كثيرة هي من غرر ديوانه . (٢٨)

وشيخنا الجاحظ اخذ يلازم مجلس الخلفاء والوزراء منذ عهد المأمون واتصل برجال الدولة حينما قدم الى بغداد . ولعل هذا هيأ الفرصة للجاحظ ان يتصل للفتح بن خاقان من اكابر الاتراك .

وفي الحقيقة كان الفتح بن خاقان من المعجبين بالجاحظ اعجابا بادبه وفضله وسعة معارفه واسلوبه الجاحظي . وبعد ما اتصل الجاحظ بالفتح قدم اليه سلسلة من كتبه . وكان الجاحظ يراه اهلا للايثار . فوضع له رسالة المشهورة " في مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة،، ورفعها اليه بهذه المقدمة الجاحظية البارعة:

---

(٢٦) — ياقوت الرومي ، معجم الادباء ، ج : ٦ ، ص:١١٧ طبعة مصر .
(٢٧) — ياقوت الرومي ، نفس المصدر ، ج :٦ ، ص: ١١٧ طبعة مصر .
(٢٨) — للجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، ج : — ص:٢٣ ، طبعة بيروت ١٩٥٥

" وفقك الله لرشدك واعان على شكرك واصلحك واصلح على يديك . وجعلناك واياك ممن يقول بالحق ويعمل به ويورثه ويحتمل ما فيه مما قد يصده عنه . . . فان الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون ان يكونوا عاملين . بل علمهم ليعلموا وبين لهم ليتقوا والخوف الوقوع في المضار والتورط في المهالك فطلب الناس التبين ولحب السلامة من المهلكة والرغبة في المنفعة احتملوا ثقل التعلم وتعجلوا مكروه المعاناة . . . الخ ". وبهذه المقدمة الطويلة التي اقتبسنا جملا منها قدام الجاحظ رسالته الى الفتح بن خاقان سيده ومولاه وولي نعمته وحاميه . (٢٩)

واتصل الجاحظ بالخليفة المتوكل على الله بواسطة خليله الوفي وصديقه المكرمه وتقرب اليه وحضر مجلسه . وكثيرا ما اخذ الفتح بن خاقان الجوائز والاحسان منه . وبسط الكلام ياقوت الرومي في معجمه بصدد اتصال الجاحظ بالخليفة بقصة رجل اراد شفاعة الجاحظ برسالته لقضاء حاجته . وخلاصة هذه القصة وهي :

" ان رجلا سأل منه كتابا الى بعض اصحابه بالوصية . فكتب الجاحظ له رقعة . وختمها . فلما خرج الرجل من عنده فضها فاذا هي في الكتاب .

" هذا الكتاب مع من لا اعرفه . وقد كلمني فيه من لا اوجب حقه . فان قضيت حاجته لم احمدك وان رددته لم اذمك ". فرجع الرجل اليه . فقال الجاحظ

— كانك فضضت الورقة . قال : نعم قال الجاحظ :

— لا يضرك ما فيها فانه علامة الى اذا اردت العناية بشخص . فقال الرجل :

— ام الجاحظ عشرة الاف عشرة الاف قحبة وام من يسأله حاجة . فقال الجاحظ ماهذا ؟ فقال الرجل : " هذه علامتي فيمن اشكره . " (٣٠) وتهلل وجه الجاحظ على هذا وتعجب بكل الاعجاب وضحك ضحكة . وحدث الى الفتح

---

(٢٩) — الجاحظ ، فضائل الاتراك .

(٣٠) — ياقوت الرومي ، معجم الادباء ج : ٦ ، ص: ٦٢ طبعة مصر ١٩٣٠

ما جرى بينه وبين هذا الرجل . وتعجب الفتح اكثر من تعجب الحاظ بهذا المزاح . وحكاه للمتوكل على الله الخليفة العباسى الذى لم يلبث ان امر باحضاره . ويقول الجاحظ :

" فلذلك كان سبب اتصالى به واحضارى الى مجلسه .،، (٣١)

ولكن الخليفة لم يحظ حظا وافرا من ظرفه ولم يلتفت اليه لدمامة خلقته وذميم صورته . ومرة استحضر المتوكل ان يؤدب ببعض ولده . فلما راه استشبع منظره فامر له بعشرة الآف درهم وصرفه . (٣٢) ووردت روايات كثيرة تدل على قبح منظره . ومن ذلك قول الشاعر : (٣٣)

" لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب الجحيم بنفسه وهو القذى فى كل طرف لاحظ،،

صلة الجاحظ مع الفتح بن خاقان التركى :

كان الجاحظ من اقرب الناس الى الفتح بينه وبين الجاحظ مودة قلبية لا يقدر قدرها . وهذه الرسالة التى كتبها الفتح من دار الخلافة ببغداد الى الجاحظ يعطر لنا فكره واضحة عن درجة الاخاء والمودة بين هذين الخليلين . ولا نبالغ اذ قلنا ان الفتح بن خاقان اكثر من يعرف الجاحظ حقه ويقدر مكانه ويسبغ عليه نعمه وعطاياه مع اخلاصه . وهو يقول فى رسالته الى الجاحظ :

" ان امير المؤمنين يجد بك ويهش عن ذكرك ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه . ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان القرالى من هذا عنوانه فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك . فاعرف لى هذه الحال واعتقد هذه المنة

---

(٣١) — ياقوت الرومى ، نفس المصدر ، ج : ٦ ، ص : ٦٣ طبعة مصر .
(٣٢) — لابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : ٣ ص : ١٤٠ .
(٣٣) — شفيق جبرى ، الجاحظ معلم العقل والادب ، ج : ص : ١٧٥ طبعة مصر ١٩٤٨

على كتال ب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به الى وكن من جدابه على نفسه تناول من مشاهرتك . وقد استطلقته لماضى . واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة. وهذا مما تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك بصيرة غنام ولولا انى ازيد فى مخيلتك لعرفتك ما يعترينى عند قراءتها والسلام . (٣٤)

هذه ناحية ومن ناحية اخرى ان الرسالة التى كتبها الفتح الى خليله يكشف لنا القناع عن بعض الحقائق التاريخية الاوهى ان الجاحظ وضع بعض رسائله بتحريض من الفتح بن خاقان وتشجيع له بحسب الظروف التى ساقته الى ان يكتب رسالة مستقلة لغرض سياسى يستهدف مصالح الدولة و نفع المسلمين .

وثانيا ان بعض رجال الاقلية ظهروا وصاروا خطرا عظيما يهدد الدولة ويضل الناس ويفسد اذهانهم بالباطل عن الحق وخاصة النصارى واليهود . والفتح بن خاقان هو الذى معظم الامر بيده والغالب على الخليفة تغلب على هذا الخطر تغلبا تاما ومهض الجاحظ على الدفاع عن الاسلام واستيقاظ للمسلمين ضد هؤلاء المتغلبين المسعودية من النصارى واليهود الذين يعيشون فى ترف من الحياة فى الممالك الاسلامية الواسعة .

نظرة عن المجتمع العباسى فى ايام الجاحظ :

ونحن لا نريد ان نبسط الكلام بل نقول بالاختصار : بعد ما اتسعت المملكة الاسلامية بسلسلة من الفتوحات التى احرزها مجاهد والعرب كانت النصارى من اهم العناصر التى دخلت تحت راية الاسلام بجانب العناصر الاخرى وتظلوا فيها وآمنوا بها .

وجدير بالذكر ان علاقات المسلمين بالنصارى ترجع الى عهد النبى . والقرآن سماهم "باهل الكتاب" ، وورد فى القرآن والاحاديث كثير من اخبارهم وقصصهم. وفضلهم الشريعة فى بعض النواحى على سائر الكفار والمشركين . واباحت للمسلمين الزواج بنسائهم وبناتهم واكل لحومهم مما ذبحوا من الغنم والبقر وغير ذلك كما فصلها الفقهاء فى كتبهم .

---

(٣٤) — لياقوت الرومى ، معجم الادباء ج :٦ ص: ٧٢ طبعة مصر

وبفضل هذه الحرفة لعب النصارى واليهود دورا هاما في المجتمع الاسلامي . ومنهم من تولى المناصب الحظيرة في الدولة الاسلامية خاصة في عهد المأمون . وبلغ نفوذهم من الاتساع حدا يهدد الاسلام . واخذوا يلبسون الباطل بالحق ويضلون عوام الناس ويعثون في الارض فسادا . وكان المسلمون يخشون خطر تعاليهم عند ما اطلق القول في زمن المأمون . وقد بلغ الخوف في عهد المتوكل الى حدما ويقول الجاحظ في كتابه الرد على النصارى :

" وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية ونفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالا يفعلون ذلك واكثر منه . واضاف الجاحظ يقول :

" يتبعون المتشابه من كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسئلون عن عوامنا مما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ... ومن البلاء ان كل الانسان من المسلمين يرى انه متكلم . وانه ليس احدا حق بمحاجة الملحدين من احد .،، (٣٥)

واراد الفتح بن خاقان ان يثير عليهم وان يجهز المسلمين بالدلائل والحجج للدفاع عن دينهم . ولذلك حرض الفتح اكبر رجاله ومتكلمه في الدين ان يحمل عليهم ويسد بابهم الذى فتحوا لافساد الناس . فطلب من الجاحظ ان يضع رسالته الشهيرة " كتاب الرد على النصارى ،، على هؤلاء المتغلبين المسعودين من النصارى واليهود . فحمل عليهم وجرح حججهم وبراهينهم على ضوء ما قدمناه .

كل ذلك بدلنا على ان الفتح بن خاقان كان يعطف على الجاحظ بكل نواحيه ويتكلف ايضا جميع حوائجه ويبذل احسانه اياه . فبقي لنا سؤال هام نورده هنا : ما مكانة الفتح بن خاقان من نفس الجاحظ ؟؟؟؟

---

(٣٥) ـ جميل جبر ، الجاحظ ومجتمع عصره ص : ٣٩ طبعة بيروت ١٩٥٨

وليس من الصعب ان يجيب عن هذه السؤال لكل من يعرف الفتح بن خاقان والجاحظ حقهما بعيد عن الصعبية القومية التي تسقى من المؤمنين المحدثين

نعم ان الجاحظ يعرف منزل سيده ويقدر حقه ويشكر اياه ويزيد في شكره عن صميم قلبه . ولا نبالغ ان مكان الفتح عند الجاحظ هو مكان الجاحظ عند الفتح . والنسمع الجاحظ ونسمع كلامه . فانه يقول :

" والنقل انا لم نر في صدر هذه الدولة المباركة العباسية ولا في تاريخها وايامها الى هذه الغاية فتى اجتمعت له فضائل الملوك وادابها ومكارمها ومناقبها . فخلز الولاء من هاشم والخصيصى من خلفاء بني العباس الطيبين . والتبنى من المعتصم بالله واخواته الابرار من ائمة المؤمنين وورثة خاتم النبيين عد الامير الفتح بن خاقان مولى امير المؤمنين

فلتهنئه هذه النعمة المهداة . وبارك له واهبها وزاد اليها الدأب عليها حتى يبلغ به ارفع يفاعها واسنى دورتها واعلى درجاتها في طول من العمر وسلامة من عوادي الزمان وغيره ونكباته فانه رحيم كريم . (٣٦)

موت الجاحظ في البصرة :

فبعد ان اتضحت لنا الصلة بين الفتح والجاحظ لا نتعجب اذا اختار الفتح ابن خاقان الجاحظ رفيقا عزيزا في طريقه الى الشام في اثناء سفرة في سنة (٢٤٣—٢٤٤) في عهد وزارته للمتوكل . وبهذا سخت الفرصة الجاحظ لزيارة انطاكية وربما وصل الى مصر فزادته الاسفار في الآفاق اطلاعا ووسعة معرفة، وربما نجده يتحدث في مؤلفاته عما لاقاه في هذه السفر من عناء وعيرة لا تخلوا من فكاهة وطرافة (٣٧) .

---

(٣٦)— للجاحظ، كتاب التاج في اخلاق الملوك ص: ٣٠٢ طبعة بيروت ١٩٥٥ .

(٣٧)— الجاحظ، كتاب الحيوان، ج: ٥ ص: ٣٧٣ .

وبعد ما سطع نوره فى البصرة وبغداد وسامراء اختصر هذا النجم اللامع من اواساط الادباء وقصور الامراء خصوصا بعد ان مات اسياده من الاتراك مثل الفتح بن خاقان وغيرهم من رجال الدولة الى ان اصيب بفالج نصفى ه واخذ ذلك المصباح المنير ينجو شيئا فشيئا حتى ظل مفلوجا ثمانية اعوام محرمة من سنة ٢٤٧ الى ٢٥٥ هـ . ومات فى شهر المحرم بالبصرة وقد نيف على تسعين سنة . (٣٨)

Cahızın TÜRK ASILLI EFENDİLERİ İLE HAYATI

Cahızla yakından ilgilenenler, onun sadece bir edip olmadığını başta tarih olmak üzere bir çok İslâmî konularda vukufu olan bir şahsiyet olduğunda ittifak ederler.

Cahızın ilminin vüsatı ve bereketi yanında, çok uzun da bir ömrü vardır. İslâmî kaynaklar onun bir asra yakın bir ömür yaşadığını kaydetmektedirler. Çok meyveler veren bu ömür çeşitli yönleri ile incelenmiş ve gerçekten de doyurucu çalışmalar yapılmıştır.

Ancak bir yönü vardır ki daha yeteri kadar aydınlatılmış değildir. Onun yaşadığı seneler Türklerin Abbasîler devrinde izzet ve ikbâlin zirvesine tırmandıkları devirlerdir. Türk asıllı bir çok ilim adamı vardır, devlet adamı vardır, büyük nüfûz sahibi komutanlar vardır.

Cahızın muasırı olan bu pek çok Türk asıllı büyüklerle ilişkisi ne durumda idi? Daha bu sorunun yeteri kadar aydınlığa kavuşturulduğu iddia edilemez. Bu mütevazı araştırmanın gayesi büyük ilim abidesi ve «Türklerin Üstünlükleri» Müellifinin, Türk asıllı efendileri ile olan hayatını anlatmak ve gün ışığına çıkarmaktır.

---

(٣٨)— الحموى ، معجم الادباء ، ج : ٦ ، ص : ٧٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ح : ٣ ، ص : ١٤٢ .